تاريخ عمال الزراعة والتراحيل

في مصر والعالم
منذ عهد السخرة
حتى سنة ١٩٦٩

الفصل الأول

ظاهرة وجود
عمال التراحيل

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

نشأة الظاهرة

إن عمال التراحيل الذين تضطرهم حياتهم إلى القيام برحلات العمل أو هجرات التشغيل بعيداً عن أوطانهم أو محل إقامتهم بحثاً عن العمل فى مواسم معينة يمثلون ظاهرة اجتماعية كثيراً ما تصاحب ظهور النظم الرأسمالية دون غيرها من النظم الاجتماعية.

فالنظام الإقطاعي لم يشهد هذه الظاهرة نتيجة للعوامل التالية:

١- وجود القنانة (الفلاحين) ونظام عبيد الأرض الذي لم يسمح أبداً للعاملين بأرض السيد الإقطاعي بمغادرة الأرض أو البعد عنها.

٢- سيادة نظام الإقطاعيات المغلقة الذي لا يسمح أيضاً لأحد بدخول الإقطاعية ، أو الخروج منها إلا بأمر السيد الإقطاعي.

٣- عدم تواجد سوق حرة لبيع وشراء قوة العمل الإنساني.. أي عدم تواجد سوق للعمالة بالمعنى الحديث.. وكذلك فالنظام الاشتراكي لم ولن يورد هذه الظاهرة لعدم وجود إمكانية قيام سوق للعمل البشرى.

وحتى إذا ما اعترض قيام هذا النظام الاجتماعي وجود هذه السوق فإنه يدفعها إلى التلاشي بفضل التخطيط الاشتراكي الذي يغطى حياة الشعب والمجتمع بما فى ذلك القوى البشرية التي تعتبر أعز وأغنى رأسمال.

أما النظام الرأسمالي بالذات فهو الذي أفرخ هذه الظاهرة الاجتماعية من خلال

نشأته لسوق العمل الإنساني لأول مرة فى التاريخ البشرى.. تحت شعار حرية العمل.. الذي اختلقته الرأسمالية عند نشأتها. حيث كان تحقيقه بمثابة ضربة موجهة إلى الإقطاع لتحرير الملايين العديدة من عبيد الأرض والأقنان (الفلاحين)، ولكن للأسف ليدفعهم إلى عبودية أبشع. هي عبودية رأس المال والعمل المأجور.. ولهذا كان هذا الشعار هو الأساس النظري لقيام سوق العمل البشرى الذي يمثل قسمة أساسية من قسمات هذا النظام الرأسمالي.

وهذه السوق الجديدة كأي سوق رأسمالي آخر لا يشاهد عرضاً مطلقاً ولا طلباً مطلقاً. ولكن يشاهد فقط عرضاً وطلباً نسبيين. وهذا يعنى أن حالات المد والجزر تسيطر على اتجاهات العرض والطلب فى هذه السوق، خالقة بذلك الوجود الفعلي لقانون البطالة الذي هو أحد القوانين العامة للنظام الرأسمالي.

ويبدو قانون البطالة أكثر وضوحاً فى المجال الزراعي لهذا السوق. حيث يعانى هذا المجال بالذات نشاطاً دائماً فى العرض وركوداً دائماً فى الطلب، بسبب التزايد المطرد لعدد سكان الريف بينما تقل المهارة الفنية بينهم. ولذلك فإن ظاهرة عمال التراحيل تتولد فى قلب هذا المناخ الاجتماعي، حيث البطالة الكاملة والموسمية والمستترة تسيطر على الحياة فى هذا المجال الذي يفرخ سنوياً الآلاف المؤلفة من العمال الرحل الذين يشبهون إلى حدٍ ما الباعة السريحة والمتجولين، ولكن يبيعون ويدللون على قوة عملهم.

ظاهرة عمال التراحيل في أوروبا

كانت إنجلترا أول بلد فى أوربا وفي العالم فجرت ثورتها الصناعية الرأسمالية التي حررت الأقنان وعبيد الأرض، وأوجدت العامل بالمعنى العلمي الحديث، ولكن هذه الثورة الصناعية رغم طابعها التقدمي وقتئذٍ قد سببت للجماهير العاملة - التي تحررت منذ وقت قريب جداً من عبودية الإقطاع الإنجليزي- في وجود كوارث مفجعة للغاية لدرجة أنها مازالت إلى الآن تمثل وصمة عار، وخزي في تاريخ الرأسمالية البريطانية ذات النزعة البربرية المتوحشة.. وقد تمت هذه الكوارث فى العهد الفيكتوري عندما راجت وتطورت صناعة الصوف البريطانية مما أغرى ملاك الأراضي الإنجليز على تحويل أراضيهم إلى مراعٍ لتربية الأغنام بدلاً من زراعتها جرياً وراء الربح، وكان ذلك عاملاً فى تشريد الجماهير الواسعة من فلاحي الأرض وعمالها الزراعيين فى بريطانيا حتى قالت الملكة فيكتوريا بعد جولة لها فى أنحاء البلاد.

لقد أصبح الفقر والتشرد وباءً قومياً، وبفضل هذا الوباء القومي تواجدت ظاهرة عمال التراحيل فى بريطانيا العظمى التي شهدت فى تلك الأيام قوافل المتشردين الباحثين عن العمل بلا جدوى لدرجة أن الكثير منهم قد اضطر إلى تشكيل عصابات إجرامية للقتل والنهب والسرقة. ومن الغريب أن حكومة بريطانيا العظمى عالجت وباء التشرد بحملات دموية فظيعة ، وغير إنسانية على الإطلاق حيث كانت تعدم المتشردين بالجملة وبغير حساب ..ففي عام واحد فقط

أعدمت سبعين ألف واحد منهم، ومع هذا فقد استفادت من المتشردين فى تحقيق الأمور التالية:

١- تكوين جيوش كبيرة وضخمة للقيام بالفتوحات الاستعمارية لنهب شعوب المستعمرات فى آسيا، وأفريقيا ، وأمريكا، هذا النهب الذي كان بمثابة حجر الأساس فى عملية التراكم المالي الهائل لإقامة الصناعة الحديثة فى بريطانيا التي كانت تسمى بورشة العالم.

٢- إتمام عمليات التوطين الواسعة فى أستراليا ، وكندا ، وأمريكا وأفريقيا لضمان بقاء النفوذ البريطاني واستمراره فى هذه البلاد.

٣- تضخم سوق العمالة فى بريطانيا مما جعل الصناعات البريطانية تضمن تغذية سهلة من الأيدي العاملة الرخيصة التي كانت تُستغل بشكل فظيع حيث كانت ساعات العمل اليومية تصل إلى ١٦و١٨ ساعة للأطفال والنساء، ولا شك أن ساعات العمل هذه قد ساعدت على وجود التراكم المالي بإنجلترا.

٤- كما أن سوق العمل البريطانية قامت بتغذية عمليات إنشاء الطرق البرية والحديدية فى بريطانيا.

ومع هذا كله فلم تتمكن مجالات العمل المتزايدة فى بريطانيا ومستعمراتها من امتصاص غالبية العمال المشردين. حيث ظل الكثير منهم يزاولون أعمال التراحيل الخاصة بأشغال الحفر بالمناجم ، وتكسير الفحم بواسطة المقاولين والموردين.

والمقاول البريطاني الذي كان يعمل فى توريد الأنفار كان يحصل على ربحه بجعل العامل ينجز «المقطوعية» بأقل من الثمن الذي تعاقد عليه، وكان لديه دافع إلى خفض الأجور التي يدفعها إلى أدنى حد فإن أكله صاحب العمل، كان عليه هو الآخر أن يأكل حقوق العمال الذين قام بتوريدهم. وفى مناجم القصدير كثيراً ما

كان يؤجر شغل المنجم إلى رئيس فرقة العمل، على أساس أن العمل يتم بالقطعة من خلال مناقصة يبدأ فيها السعر عالياً .. ثم ينخفض نتيجة المنافسة بين المقاولين وترسو المناقصة فى النهاية بين المقاولين على أقل مزايدة.

ومما يذكر أن إنجلترا ورشة العالم هذه كانت هي المرجعية لظهور الاشتراكية العلمية بفضل ماركس وانجلز اللذين استفادا من أحوال الطبقة العاملة في إنجلترا واستغلالهم بدون رحمة.

وفى إيطاليا وأسبانيا يوجد عمال التراحيل الذين يقومون بهجرات العمل الداخلية وخاصةً فى أيام شتل الأرز، وحالة هؤلاء العمال بائسة كما يصورها الفيلم التقدمي «مرارة الأرز»، ويقوم هؤلاء العمال أيضاً برحلات عمل خارجية وذلك فى موسم محصول العنب فى فرنسا ، ويقطعون الترحيلة سيراً على الأقدام حتى يصلوا إلى حقول العنب ومعاصره.

عمال التراحيل في أمريكا

من الغريب أن أمريكا التي تتصدر العالم الرأسمالي والإمبريالي الآن صناعياً واقتصادياً كانت تعاني أيضاً من ظاهرة تواجد عمال التراحيل الذين كانوا فى بداية هذا القرن من العمال المكسيكيين والصينيين واليابانيين وعمال الفلبين الذين كانت مناطق عملهم قاصرة على غرب أمريكا وخاصةً ولاية «كاليفورنيا». ولكن أحداث أزمة سنة ١٩٣٠ كانت سبباً فى القضاء على الكثير من أصحاب المزارع الصغيرة الذين تحولوا اجتماعياً واقتصادياً إلى عمال تراحيل مشردين ليس لهم بيوت ولا قرى ولا مناطق حتى لإقامتهم، ومن ثم أصبحوا كالعرب الرحل يتنقلون من مكان إلى آخر بحثاً عن العمل والرزق. ولقد كانت الحياة السيئة لهؤلاء العمال مثار عطف شديد من قبل الرأي العام الأمريكي بفضل اليسار التقدمي فى أمريكا الذي قد أبرز مشاكل هؤلاء العمال أمام ضمير الشعب الأمريكي من خلال الاحتجاجات المتواصلة والكتابات المثيرة ، والمحزنة حول حياة عمال التراحيل فى أمريكا بلد البنوك والاحتكارات ، وناطحات السحاب ، وذلك مثل رواية «عناقيد الغضب» لجون شتاينبك.

وفى سنوات الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى تناقصت فرص العمل أمام عمال التراحيل فى موسم جنى محصول القطن والتفاح، ولذلك هبطت أجورهم عموماً فى أمريكا حيث أصبحت هذه الأجور أقل من الأجور التي كانوا يتقاضونها ما بين سنة ١٩١٠ وسنة ١٩١٤، ونتيجة لهذه الظروف تعرض عمال التراحيل لحياة الجوع

القاسية التي قد فُرضت لمدة سنوات على كل كادحي البلدان الرأسمالية جميعاً – هذه البلدان التي مات فيها مليونان و٤٠٠ ألف شخص فى سنة ١٩٣٤، بينما الولايات المتحدة الأمريكية قد أتلفت أكثر من مليون عربة من الحبوب تكفى لتغذية ١٠٠ مليون شخص لمدة عام، و٢٦٧ عربة بن، و٢٥٨ ألف طن من السكر، و٢٦ ألف طن من الأرز، و٢٥ ألف طن من اللحم وكثيراً من المواد الأخرى.

وإن ما عملت له جذور الكروم والشجر يجب إتلافه حتى لا تهبط الأسعار. وهذا أحزن ما يحزن. إن البرتقال يُرمى على الأرض عرباتٍ بأكملها.. والناس يذهبون من عدة أميال لالتقاط الفواكه المرمية ، ولكن هذا غير ممكن إطلاقاً.. فمن سيدفع ثمناً للبرتقال عشرين سنتاً للدرزينة إذا كان من الممكن الذهاب إلى خارج المدينة والحصول عليه بالمجان. ولهذا يُرش الكيروسين من الخرطوم على جبال البرتقال، وإن من يفعل ذلك يكره نفسه لهذه الجريمة ويكره الناس الذين يأتون لالتقاط الفواكه. والملايين من الجائعين يحتاجون إلى الفواكه، والجبال الذهبية تُرش بالكيروسين.. وتنتشر فوق البلاد رائحة العفونة. كما أحرقوا البن فى مواقد البواخر، أحرقوا الذرة بدلاً من الحطب، إنها تحترق بمرارة، رموا البطاطس فى الأنهار. وضعوا الحراس على طرق الضفاف حتى لا يلتقطها الجائعون. إذ ذبحوا الخنازير ودفنوا جلودها في الأرض لتشرب الأرض العفونة. هذه جريمة لا اسم لها، هذه مصيبة لا تقاس بأية دموع. هذه هزيمة تبدد كل نجاحاتنا. نجاحات البشرية. أرض خصبة وصفوف مستقيمة من الأشجار ، وجذوع متينة وفواكه طيبة.. والأطفال الذين يحتضرون من البلاجرا يجب أن يموتوا لأن البرتقال لا يدر ربحاً.. وعلى المحققين أن يقدموا التقارير بما حصل نتيجة سوء التغذية، لأن المأكولات يجب أن تتعفن، لأنها تتعفن عن قصد، ويأتى الناس ومعهم شباك لصيد

البطاطس من النهر ولكن الحراس يطردونهم، إنهم يأتون على سيارات مطرطقة سعياً وراء البرتقال المرمى ولكن الكيروسين يكون قد فعل فعله، فيقفون واجمين ينظرون إلى البطاطس السابحة على مقربة منهم ويسمعون صراخ الخنازير التى تُذبح وينظرون إلى الكلس ، وهو يُرمى فى الترع ، وينظرون إلى جبال البرتقال التى يسيل عليها السائل اللزج ذو الرائحة البشعة ، وفى أعين الناس الخذلان ، وفى أعين الجائعين يختمر الغضب - عناقيد ثقيلة ولن يمضى وقت طويل حتى تنضج - «جون شتاينبك عناقيد الغضب»..

ولم يتخلص عمال التراحيل فى الولايات المتحدة من حياة الجوع والبؤس إلا بقيام الحرب العالمية الثانية التى قد اشتركت فيها أمريكا بجانب دول الحلفاء. حيث تناقصت الأيدى العاملة الزراعية نتيجة هذه الحرب. ولهذا استطاع الكثير من هؤلاء العمال الحصول على أجور عالية ساعدت على تحسين أحوالهم ومعيشتهم..

ويعترف الأمريكيون أنفسهم بأن عمال التراحيل لم ينتفعوا بحماية التشريعات العمالية والاجتماعية - كما أن أطفالهم كانوا محرومين باستمرار من فرص التربية والتعليم.. علماً بأنه قد تواجد جزء ضئيل من هؤلاء العمال قد مستهم بعض التشريعات، وهم عمال التراحيل العاملين فى مزارع البنجر ، والذين استطاعوا الحصول على بعض الحقوق الاجتماعية بموجب قانون السكر الصادر فى سنة ١٩٣٧ نتيجة العوامل التالية:

١- مواظبة هذا الجزء من العمال على العمل الموسمى والمؤقت فى مزارع البنجر لعدة سنوات..

٢- اختلاط هؤلاء العمال بالعمال الفنيين والصناعيين الدائمين بمصانع السكر الملحقة بمزارع البنجر مما زاد من وعيهم وتضامنهم الطبقى..

٣- احتمال قيامهم بتحركات إضرابية كانت تهدد محصول البنجر وبالتالى صناعة السكر وذلك بعد نمو وعيهم الاجتماعى.. وكان عدد عمال الزراعة والتراحيل فى أمريكا قرابة ٧,٥١٠,٠٠٠ عامل وفى الفترة ما بين سنة ١٩٤٠ وسنة ١٩٥٠ تناقص إلى نحو مليونى عامل بسبب زيادة الميكنة الزراعية. وتقدر بعض الاحصائيات الأمريكية أن عمال التراحيل يمثلون خمس مجموع العمال الزراعيين، كما تقدر أيام عملهم بمائة وخمسين يوماً فى السنة يترددون على المزارع الأمريكية التى كان عددها فى سنة ١٩٢٠ ربع مليون مزرعة ما لبثت أن أصبحت ٣,٥ مليون مزرعة فى سنة ١٩٥٠.. وكانت الإدارات الرأسمالية لهذه المزارع تستغل عمال التراحيل بشكل بشع. حيث قُدر انتاج عامل الترحيلة فى عام ١٩٢٠ بما يكفيه ويكفى أربعة أشخاص وفى عام ١٩٥٠ قدر هذا الانتاج بما يكفى العامل ، ويكفى معه عشرين شخصاً..

عمال التراحيل في آسيا

لقد كانت الصين قبل نجاح ثورتها الاشتراكية العظيمة سنة ١٩٤٩ .. تعتبر مخزناً كبيراً للحم البشرى. وذلك خدمةً لمصالح الرأسمالية العالمية، وكانت مناجم التُرنسفال فى جنوب أفريقيا ، ومزارع الشركات الاستعمارية فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية تستقبل الآلاف من عمال التراحيل الصينيين الذين كانوا يشحنون عند سفرهم بطريقة بشعة وغير إنسانية لدرجة أن ٤٠٪ منهم يلقون حتفهم فى الطريق..

ويبدو أن مقاولات الأنفار وعملية ترحيلهم خارج الصين كانت تماثل من حيث الربح والمصلحة تجارة الأفيون التى كانت تمارسها الشركات الاستعمارية فى الصين، وذلك بدليل أن الحرب المعروفة بحرب الأفيون التى قد شنتها إنجلترا على الصين فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ..كانت تستهدف حماية تجارة الأفيون التى تمارسها شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وكانت تستهدف أيضاً حماية تجارة الخنازير «مقاولات الأنفار» كما كانت تسميها الشركات الاستعمارية..

ومقاولو الأنفار فى الصين كانوا يحصلون على ربح فاحش يقدر بستين فى المائة من أجور العمال. ومن الغريب أن عمال التراحيل كانوا ينظرون إلى الإتاوة التى يأخذها مقاولوهم على أنها حق سماوى ورزق سماوى خاص بهم، وكان ذلك راجع إلى الجهل والخرافة المسيطران على هؤلاء العمال..

وبعد نجاح الثورة الصينية كان أهم ما واجهها فى مجال العمالة يتمثل فى شكل القضاء على ظاهرة وجود عمال تراحيل فى الصين باعتبارها علامة ساطعة من

علامات النظام الرأسمالى المنهار - ولهذا واجهت هذه المشكلة بالقضاء على العلاقات القديمة المتخلفة التى تسود حياة عمال التراحيل - وخاصةً العلاقات الأبوية والعاطفية التى كانت تربطهم بمقاوليهم المحاطين باحترام العادة الخرافى المفرط حتى درجة التقديس..

وتمت عملية القضاء على هذه العلاقات بواسطة العمال أنفسهم الذين تسلحوا بالوعى الثورى الاشتراكى من أجل تحرير أنفسهم بأنفسهم من عبودية مقاولى الأنفار، وكان من الميسور جداً أن تصدر حكومة الصين الشعبية قانوناً عاجلاً بإلغاء نظام مقاولى الأنفار ولكنها رأت أن من الأفضل حل هذه المشكلة بشكل جماهيرى تاركة للعمال وحدهم مواجهة أمورهم بواسطة الديمقراطية الاشتراكية كسلطة للعمال والفلاحين، حتى يتعلموا ممارسة النضال، ومن ثم ينشط الصراع الطبقى الخامل فى صفوفهم. وبذلك تحطمت عزلتهم عن الحياة والمجتمع وشاركوا مشاركة واعية فى بناء الصين الجديدة..

واليابان بلاد الشمس المشرقة كانت مصدراً لتوريد عمال التراحيل إلى أمريكا، وفى بورما وأندونسيا والهند الصينية تواجدت ظاهرة عمال التراحيل الذين كانوا يقومون برحلات عمل داخلية للعمل فى مزارع الأرز والمطاط.. وفى الهند كان عمال التراحيل الباحثين عن العمل ينظمون تلقائياً مواكب الجوع التى كانت تطوف فى أرجاء الهند بحثاً عن القوت.. ولقد شهد إقليم البنغال مجاعة فظيعة مات بسببها الآلاف من عمال التراحيل الذين كانوا يعملون فى رصف الطرق وإقامة الكبارى خدمةً للقوات البريطانية والأمريكية أثناء حملة بورما المشهورة..

عمال التراحيل في أفريقيا

إن أفريقيا السوداء هى أكبر مستودع لعمال التراحيل حالياً فى العالم.. حيث امتصت فيها المشاريع الزراعية ، والإنشائية الجبارة فى أمريكا كل الاحتياجات من الأيدى العاملة المسخرة عن طريق النخاسة البغيضة والخطف واصطياد الإنسان الأفريقى كما يتم اصطياد الحيوان سواءً بسواء.. ولذلك فإن الشركات الاستعمارية قد خططت عمليات الاستفادة من هذه الثروة البشرية الممثلة فى الملايين العديدة لعمال التراحيل الأفارقة. حيث تضمن التخطيط الاستعمارى حصارهم فى أوضاع متخلفة مثل..

١- إبقائهم كأشباه عمال بحيث لا يتكامل وجدانهم الطبقى - هذا الوجدان الذى يولد فى نفوسهم الإحساس بالوحدة والتضامن الطبقيين..

٢- فرض نوع من القنانة الحديثة عليهم عن طريق ربطهم جبراً بالأرض بحيث لا يسمح لهم برحلات العمل إلا فى الحدود المقررة رغماً عنهم ، والتى تتطلبها المصالح الاستعمارية وحدها..

٣- ربطهم أكثر فأكثر بالقبيلة بحيث يصبح انتماؤهم إلى القبيلة أقوى من انتمائهم إلى طبقتهم الاجتماعية.

٤- تعرضهم باستمرار لعلاقاتٍ غير إنسانية يعبر عنها قانون التجنيد الذى سوف نتحدث عنه ، والذى يعتبر نوعاً من السُخرة المحرمة قانوناً والمنافية لحقوق الإنسان..

ويزاول عمال التراحيل الأفارقة أعمالهم فى أشغال الحفر بالمناجم فى تكسير الخام

وهى أعمال لا تتطلب أية مهارة فنية كما أن بعضهم يقوم برحلات عمل شاقة وطويلة للعمل فى أشغال الزراعة .. مثل عمال التراحيل فى نيجيريا الذين كانوا يذهبون للعمل بالسودان حيث كان يُطلق عليهم تسمية - الفلاتة - وقد قيل أن أجر العامل منهم كان لا يتعدى ستة مليمات يومياً.. ومن المزارع الاستعمارية المشهورة التى تمتص الكثير من عمال التراحيل الأفريقيين مزارع الكاكاو فى غانا، وكذلك مزارع شركة فايرستون للمطاط فى ليبريا، ولقد كان المشروع الاستعمارى والاستغلالى الذى أعدته حكومة العمال البريطانية فى سنة ١٩٥٠ والمعروف بمشروع الفول السودانى يعتمد أساساً على استغلال الجماهير الكبيرة من عمال التراحيل الأفارقة ذات الأجور الهزيلة جداً. وذلك من أجل زراعة أكثر من مليون فدان بالفول السودانى فى وسط أفريقيا لعصره ، وتصنيعه لحساب الاستعمار البريطانى..

وتعتبر رودسيا الجنوبية وجنوب أفريقيا أكبر وأهم مناطق لتشغيل عمال التراحيل فى القارة كلها، حيث تشدان غالبية عمال التراحيل فى أفريقيا السوداء - ولقد حاولتا من قبل استيراد عمال التراحيل من الجزائر والجزيرة العربية ولكنهما لم يوفقا..

وفى سبيل دوام تغذية كافة المشاريع فى هاتين البلدين بحاجتها من أنفار التراحيل فقد تم إنشاء خط حديدى يبلغ طوله ١٣٠٠ كيلومتراً ، وبجانبه أسطول نهرى كبير وعدد من الطائرات خدمةً لهذا الغرض.. ولقد ركزت الشركات الاستعمارية المعنية بهذا الأمر على أربع مناطق لأخذ حاجاتها من القوى البشرية وهى:

أولاً.. مستعمرة موزمبيق ، وخاصةً الأقاليم الجنوبية وبشكل عام إقليم - نياسا - وهذه المستعمرة البرتغالية هى أول سوق عمل قد تم فتحه لحساب الشركات المذكورة فى جنوب أفريقيا حيث أنقذ هذا السوق الخاص بتوريد عمال التراحيل، صناعة الذهب فى جنوب أفريقيا من أزمة الأيدى العاملة فى سنوات ١٨٩٠ -

١٩٠٠ .. وقد بلغت نسبة العمال الذين ذهبوا من هذه المستعمرة للعمل فى مناجم التُرنسفال بجنوب أفريقيا ٩ , ٨٨٪ من جملة أنفار التراحيل الأفارقة فى هذه المناجم.. ولكن هذه النسبة قد هبطت فى عام ١٩٥٨ بسبب افتتاح أسواق عمل جديدة حتى بلغت نسبة الهبوط ٢٦٪.. ومن الغريب أن حكومة البرتغال الاستعمارية هى التى تقوم بوظيفة مقاولى الأنفار. حيث تقوم بنفسها بعقد اتفاقات مباشرة مع الحكومة العنصرية بجنوب أفريقيا لتوريد أنفار التراحيل وفقاً للشروط التالية:

١- أن تورد البرتغال سنوياً ما بين ٦٠ إلى ١١٥ ألف عامل ترحيلة..

٢- لابد أن تحصل المناجم من البرتغال على فرق ثابتة من العمال..

٣- يكون مدة العقد بالنسبة لعامل الترحيلة من ١٢ إلى ١٨ شهراً..

٤- تلزم المناجم بعودة العمال إجبارياً ورغماً عنهم إلى موزمبيق..

٥- تتقاضى البرتغال إتاوة قدرها ٤٤ شلناً عن الرأس الواحدة فى العام..

٦- أن تسمح جنوب أفريقيا بمرور بعض الواردات عن طريق موانيها مجاناً للبرتغال..

ولا خلاف على أن هذه الشروط تتضمن السمات الأساسية لنظام السُخرة الذي تباشره البرتغال وجنوب أفريقيا ضد العمال الأفارقة.. حيث يرغم العمال غصباً عنهم على الذهاب للعمل فى مناجم التُرنسفال بمقتضى لائحة عمل شاذة أصدرتها البرتغال تنص على عدم جواز وجود أى مواطن من أهالى موزمبيق بلا عمل.. والقصد من هذه اللائحة ضمان شحن المزيد من أنفار التراحيل إلى جنوب أفريقيا حتى تزداد عمولتها. ولذلك تقوم الأجهزة البوليسية فى هذه المستعمرة بمطاردة المواطنين والقبض عليهم بمقتضى هذه اللائحة، وفى الوقت نفسه فإن البرتغال لديها كافة الضمانات لعودة الآلاف من العمال الذين ترسلهم جبراً إلى جنوب

أفريقيا، وذلك وفقاً للشروط السابقة التى تتضمن العودة الجبرية لعمال التراحيل من جنوب أفريقيا.. هذه العودة التى لا تعنى فقط ضمان بقاء المزايا التى تحصل عليها البرتغال باعتبارها المقاول الوحيد لتوريد أنفار التراحيل فى موزمبيق، ولكنها تعنى أيضاً الخوف الذى يسيطر على الأقلية البيضاء التى تشكل الحكومة العنصرية بجنوب أفريقيا من توطين المزيد من العمال الأفارقة السود فى مناطق عملهم بجنوب أفريقيا.. حيث يساهم هذا التوطين فى تلاشى علاقتهم بالأرض والقبيلة لتحل محلها علاقات عمل جديدة.. ومن ثم يتحولون من أشباه عمال إلى عمال خُلص من الناحية الاجتماعية. وعندئذٍ يلتهب الصراع الطبقى فى صفوفهم وتكون الطامة الكبرى على مستغليهم وعلى مستعمريهم على السواء..

ثانياً.. الثلاث محميات الإنجليزية سابقاً - باسوتولاند - وبتشوانا لاند - وسوازيلاند - وهذه المحميات الثلاث هى أحد مصادر عمال التراحيل فى أفريقيا. ويقول تقرير مكتب علاقات الكومنولث البريطانى أنها قد وردت إلى جنوب أفريقيا ١٧٥,١٠٠ عامل وتحصل سلطات المحميات على إتاوة ثلاثة جنيهات مقابل كل نفر تقوم بتوريده إلى جنوب أفريقيا..

ثالثاً.. جنوب غرب أفريقيا..

رابعاً.. أفريقيا الاستوائية البريطانية سابقاً.. رودسيا الشمالية «زامبيا حالياً» ويناسلاند، وتنجانيقا «تنزانيا» حالياً، وأوغنده - وهذه المناطق كانت قاصرة على توريد أنفار التراحيل إلى جنوب أفريقيا ومناجمها قد استوعبت الآلاف من هؤلاء الأنفار حتى ارتفع عددهم من ٤٠٥,١٥ نفر سنة ١٩٣٨ إلى أكثر من ١٧٥,١٠٠ نفر سنة ١٩٥٩ وفى تقديرات عام ١٩٦٠ أن هذا العدد سيصل إلى ١٨٠ ألف نفر سنويًا..

نظام التجنيد..

كان نظام التجنيد المعمول به فى أفريقيا السوداء من صنع الاستعمار البريطانى خدمةً لمصالح الاحتكارات الأجنبية - وهذا النظام الاستعمارى هو نوع من السُخرة المقنعة، حيث كانت تفرض على العمال الأفارقة حالة التجنيد الإجبارى فيفقدون مقومات حرياتهم الشخصية والاجتماعية، وذلك لإرغامهم على العمل فى مناجم ومزارع الاحتكارات فى جو من التسلط العسكرى الرهيب كما قد تم فى بلادنا أثناء الحرب العالمية الأولى عندما قام الاستعمار البريطانى بتجنيد مليون ونصف مليون فلاح مصرى للقيام بأعمال الحفر والإنشاءات خدمة للجيوش البريطانية. وفى ظل التجنيد لا يستطيع العامل رفض العمل أو مبارحته إلا بتصريح من إدارة المنجم أو المزرعة كما هوالحال فى القشلاق والثكنة العسكرية. ولهذا فإن هذا النظام كان منافياً ومعادياً للحريات المدنية والشخصية والنقابية..

أجور عمال التراحيل فى أفريقيا..

فى العشر سنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت أجور عمال التراحيل الأفارقة فى قمة ارتفاعها بسبب أزمة الأيدى العاملة فى هذه الأيام وخاصةً فى مناجم التُرنسفال، حيث كان أجر العامل ثلاثة جنيهات ، وثلاثة شلنات فى الشهر طبقاً لاحصائيات عام ١٨٩٠، ثم انخفض هذا الأجر بنسبة ٣٠٪ فى عام ١٨٩٧ وفى عام ١٩٠٠ أصبح متوسط أجر النفر واحد جنيه و١٩ شلناً، ولم يزد هذا الأجر شيئاً فى مدى عشرين سنة. وكان آخر تقدير هو٣٩ جنيه و٩ شلنات مقابل الترحيلة الأولى التى تقدر بإثني عشر شهراً و٤٥ جنيهًا للترحيلة الثانية التى تقدر بثمانية عشر شهراً، وذلك بالنسبة للنفر الواحد بما فى ذلك أجرة سفره..

عمال التراحيل في الوطن العربي

وكذلك فى الوطن العربى قد تواجدت فيه ظاهرة عمال التراحيل وخاصةً فى الجمهورية العربية المتحدة، وسوف نتحدث عنهم باستفاضة.. وفى العراق يوجد عمال التراحيل ينشطون فى موسم البلح لمدة ثلاثة أشهر فقط، ونظراً لأحوالهم الاجتماعية السيئة فإن حلقة الدراسات الاجتماعية التى نظمتها جامعة الدول العربية فى سنة ١٩٥٦ قد اهتمت بدارسة مشاكل هؤلاء العمال وقدمت عدداً من التوصيات بشأنهم..

خصائص مشتركة..

إن عمال التراحيل فى كل الدنيا لهم خصائص مشتركة من حيث الطبيعة الطبقية وظروف العمل والعادات والأمراض وذلك مثل:

١- أنهم جميعاً من عمال الزراعة، ويمارسون الأعمال الزراعية والإنشائية وأشغال الحفر والردم بواسطة مقاولى الأنفار.

٢- أنهم عمال وأشباه عمال لارتباط بعضهم بالأرض من حيث الملكية وارتباطهم بشدة بالقبيلة والعائلة.

٣- وتكون مناطق عملهم بعيداً عن قراهم، وجيرتهم، ويذهبون إليها فى مواسم العمل.

٤- تسيطر عليهم البطالة المقنعة والمستترة.. وتسيطر عليهم أيضاً الغربة

الاجتماعية.

٥- لم يتمتعوا طوال حياتهم بالحريات الشخصية والمدنية.. ويعيشون فى أوطانهم كمواطنين من الدرجة الثالثة أو الرابعة باعتبارهم منبوذى الحياة والمجتمع، ولهذا فمشاعرهم تتقارب من مشاعر الغجر والعرب الُرحل.

٦- وتبدو الأمية والجهل والخرافة صفات تلازم حياتهم.

٧- ويبدو كذلك الصراع الطبقى بينهم فى حالة من الهمود والركود.

٨- إن كلمة الأنفار تطلق عليهم كاسم شائع عليهم..

٩- أما عمال التراحيل فى البلاد التى اختارت الطريق الاشتراكى مثل بلادنا فإنهم يتعرضون حتماً للتلاشى والذوبان المنظم بامتصاصهم المشاريع الزراعية الحديثة الممكنة ، حتى تختفى نهائياً ظاهرة وجود العمال السريحة والُرحل من الحياة الجديدة والمجتمع الجديد..